

موقف الإسلام من القومية



«يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (الحجرات - 13).

تتناول آية سورة الحجرات موقف الإسلام من مسألة (القومية) في ثلاث نقاط:

1 - الجانب التكويني من مسألة القومية، وهو قوله تعالى:

«يا أيها الناس أنزلنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل».

2 - الجانب الوظيفي من هذه المسألة، وهو قوله تعالى:

«لتعارفوا».

3 - الجانب القيمي من هذه المسألة، وهو قوله تعالى:

«إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

وسوف نتناول في هذه الدراسة ان شاء الله هذه النقاط الثلاثة من البحث باختصار.

1 - الجانب التكويني

«انزلنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل».

الجزء الأول من الآية الكريمة تقرر ان مسألة تعددية الشعوب والقبائل قائمة في صلب التكوين، وليس هذا الاختلاف والتعدد في الأقسام والشعوب والقبائل مما انتحله الإنسان واختلقه، مما ليس في صلب التكوين.

ففي هذه الآية ينسب القرآن الكريم مسألة التعددية في الشعوب والقبائل إلى الله تعالى مباشرة «وجعلناكم شعوباً وقبائل». وهو صريح في نسبة هذا الأمر إلى الله تعالى.

كما ان الآية الكريمة تعطف جملة «وجعلناكم شعوباً وقبائل» على قوله تعالى: «انما خلقناكم من ذكر وانثى» وهو صريح في ان مسألة تعدد الشعوب والقبائل من أمر الله تعالى، وما كان من أمر الله تعالى فهو قائم في صلب التكوين.

وفي سورة الروم يعد القرآن اختلاف الألوان والألسن من آيات الله تعالى. يقول تعالى: «ومن آياته خلق السموات والأرض * واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين».

العوامل الثلاثة المكونة للشعوب والقبائل

تدخل في تكوين الشعوب والقبائل ثلاثة عوامل وهي:

1 - العوامل المكونة لشخصية الإنسان داخل النفس من الفطرة، والغريزة، والضمير، والعقل، والإرادة.
2 - البيئة والمحيط والوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه الشعوب والقبائل، وتقصد بهذا العامل مجموعة العوامل التي تؤثر في بناء وتكوين شخصية الإنسان خارج النفس، وتدخل في ذلك الرسائل الإلهية والثقافة والتقاليد والاعراف والخبرات العلمية التي تتكون في البيئة بسبب العوامل المختلفة الفاعلة في حياة الإنسان من الحرب والسلم، والتجارة، والفقر، والثراء، والجذب، والخصوبة، والمناخ، والأنظمة الحاكمة، والأمن، والخوف، والمرض، والسلامة، والأوضاع الطبيعية الأخرى في البيئة...
وهذه مجموعة واسعة من العوامل تدخل عبر التاريخ في تكوين الحالة الحضارية والأعراف، والتقاليد، والقيم، والأخلاق، وأصول العلاقة الاجتماعية والزوجية، ونمط الحياة لكل بيئة، ولكل شريحة اجتماعية (من الشعوب والقبائل والأقوام)، تسكن هذه البيئة أو تلك، كما تدخل في تكوين الخبرات الاجتماعية لهذه الشرائح.

وتتفاعل العوامل من الطائفة الأولى والعوامل من الطائفة الثانية في تكوين شخصية الشرائح الاجتماعية.

ولنُسمَّ الطائفة الأولى من العوامل الداخلية، والطائفة الثانية بالعوامل الخارجية.
ان التفاعل الذي يتم بين هاتين الطائفتين من العوامل يؤثر في بلورة وتكوين شخصية الشعوب.
وليس من شك ان الطائفة الأولى من العوامل لها دور فاعل ومؤثر في تصفية وتنقيح العوامل من الطائفة الثانية، إلا ان من الحق أيضاً أن الطائفة الأولى تتأثر بالطائفة الثانية أيضاً.

وتتبلور وتتكون شخصية الشعوب الحضارية بفعل هذين العاملين.

3 - الوراثة: وهذه ثلاثة العوامل المكونة للشعوب والأقوام والقبائل.

ومهمة هذا العامل نقل المقومات التي تكون المقومات الحضارية للأمة من جيل إلى جيل. ودور الوراثة ليس فقط نقل الحالة الحضارية والعلمية من جيل إلى جيل، بل تتجاوز هذه المهمة إلى تعميق وتاصيل الحالات الحضارية، والخبرات العلمية، فإن الجيل الذي يستلم الموارث الحضارية والعلمية يقوم بدور تاصيل وتعميق وتكميل هذه الموارث ليسلمها إلى الجيل الذي يأتي من بعده من نفس الشريحة الاجتماعية.

ولولا جسور الوراثة في الحضارة والعلم.. لم يتمكن الإنسان أن يتجاوز المراحل الأولى البدائية من تاريخه الحضاري والعلمي.

وكل ما عندنا اليوم من الموارث الحضارية والعلمية انتقل إلينا عبر هذه الجسور، وهذه العوامل الثلاثة بالاجمال هي التي تكوّن الشخصية الحضارية والعلمية للشعوب والأقوام والأُمم. وبناءً على هذا التصوّر فإنّ كل شريحة اجتماعية من شعب أو قبيلة يعتبر تراكمًا من الموارث الحضارية والعلمية، تكونت وتبلورت، وتأسّلت، خلال التاريخ، وانتقلت من جيل إلى جيل بفعل عامل الوراثة.

وكلمة (الشعوب والقبائل) في الآية الكريمة تعني في التحليل العلمي لهذه الكلمة هذا التراكم من الموارث الحضارية والعلمية، بما في ذلك اللغة، فإن اللغة عامل أساسي في التعبير عن هذا الميراث الحضاري والعلمي وفي نقل هذا الميراث، وهذا هو تعريفنا الذي نتلزم به، للأقوام والشعوب. وبناءً على هذا التعريف فإن القومية حالة حضارية وثقافية، ولغة معينة للتعبير عن هذه الحالة الحضارية والثقافية.

2 - الجانب الوظيفي

«لتعارفوا» اذا عرفنا ان تعدد الأقوام والشعوب مسألة حقيقية، داخله في صلب (التكوين) ومما جعله [] تعالى في صلب حياة الإنسان الاجتماعية. تنتقل إلى الجانب والوظيفي من هذه القضية. فقد نهض الإسلام بدور توجيهي لتوظيف هذه الحالة من العدديّة التكوينية في الشرائح الاجتماعية لتكامل الإنسان من خلال عملية التلاقح الحضاري القائمة على أساس التعارف والتلاقي والتعامل. والى هذا التوظيف تشير الآية الكريمة من سورة الحجرات بقوله تعالى: «لتعارفوا». فإن للتعارف مفهوم واسع، يشمل المراحل المختلفة للقاء والتلاقح الحضاري، بدءاً بالتعارف، ومروراً باللقاء، والتعامل، والتعاون، وتبادل الخبرات، والامكانيات، والتبادل الثقافي، والحضاري. وهذه المفاهيم والمعاني منطوية جميعاً في كلمة «التعارف» فإن التعارف يستتبع العلاقة، بمختلف أشكالها من العلاقات الاقتصادية إلى السياسة والاجتماعية.

والعلاقة تستتبع تبادل الخبرات، والكفاءات، والامكانيات، والثقافات، والقيم، والأعراف، والمسائل

الحضارية الاخرى.

وبذلك فإن (التعارف) الذي تشير إليه الآية الكريمة هو أساس (التلاقح الحضاري)، والتلاقح في سنن ا □
تعالى في الكون أساس للتكامل.

والإنسان يتكامل من خلال هذا التلاقح والأخذ والعطاء، فيأخذ من الآخرين أفضل ما عندهم، كما يأخذ
الآخرون منه أفضل ما عنده من ذلك كله.

وكذلك يصح الإنسان أخطائه بما يصح عنده من أعمال الآخرين، ويصح الآخرون كذلك أخطاءهم بما يصح
عندهم من أفعاله، وهكذا يتكامل ضمن منهج اللقاء الحضاري الذي يصفه القرآن بـ(التعارف).

ويوظف الإسلام هذه الحالة من التعددية في الشعوب والأقوام لتكامل الإنسان من خلال منهج (التعارف).
ولو ان الناس كانوا كتلة واحدة، وثقافة واحدة، وحضارة واحدة، ولغة واحدة لم يجد الإنسان مثل هذه
الفرصة التي أتاحتها ا □ تعالى له للتلاقح والتكامل الحضاري من خلال منهج (التعارف).

المنهج القرآني لـ(التعارف)

والقرآن الكريم يقرر لمبدأ (التعارف) منهجاً علمياً متكاملًا.

وهذا المنهج نجده في سورة الزمر في صفة المؤمنين:

«الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه».

وهذه الآية الكريمة تنظم عملية التعارف والتلاقح الحضاري والتكامل من خلال نقطتين:

1 - الانفتاح.

2 - الانتقاء.

والاستماع هو الانتفاح، وهو مما يحبه ا □ تعالى، فليس من صفة المؤمن ان ينغلق على قول، ويصم اذنه
عنه.

ولا يضر المسلم، إذا تسلح بالوعي والبصيرة ان يفتح على قيم الآخرين وثقافاتهم، واعرافهم، وأصولهم،
ومفاهيمهم، فضلاً عن خبراتهم وعلومهم.

فإن الانفتاح من خصال المؤمنين.

والإنغلاق من خصال الكافرين الذين يأخذون أفكارهم وأصولهم عن تقليد وعن غير وعي:

وا □ تعالى يذم المقلدة الذين ينغلقون على دعوة ا □ ورسله، ويفتخرون على اتباع الآباء، ولو كانوا
على غير هدى.

يقول تعالى: «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل ا □ والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا
* أو لو كان آباؤكم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون» (المادة - 104).

وعن لسان أنبياء ا □ يقول القرآن:

«قال موسى اتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا؟ ولا يفلح السّاحرون، قالوا أجنّتنا لتلفتنا عمّا وجدنا
عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين» (يونس - 78).

إذن القرآن يؤكد حالة الانفتاح والاستماع إلى الآخرين، ويشجب ويرفض حالة الانغلاق. وهذه هي النقطة الأولى في منهج التعارف وهو قوله تعالى في آية الزمر «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ». والنقطة الثانية من منهج (التعارف) هو انتقاء الأحسن وهو قوله تعالى: «فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ». ولا بد في التلاقح الحضاري والتكامل من (الانفتاح) ومن (الانتقاء) معاً والانفتاح من دون الانتقاء لا ينفع.

ولا يتم الانتقاء من دون الوعي والتعقل وإذا كان التعارف والانفتاح والانتقاء هو التوظيف الصحيح لمسألة تعددية الأقسام والشعوب في المنهج الإسلامي، فإن التوظيف الخاطيء لحالة تعددية الأقسام والشعوب هو ان ينحاز الإنسان إلى قومه وشعبه في حق أو باطل.

مفتاح (العالمية) الجديدة

واية سورة الزمر مفتاح التصور الإسلامي الجديد للعالمية.

وهذه المفاتيح يتكون من جزئين: الانفتاح والانتقاء الواعي.

وهذا لمفتحا يفتح عقل الإنسان وقلبه على التاريخ وكل العالم، ولا يبقى أمام عقله وقلبه باباً موصداً، لا يحق له أن يدخله. بشرط ان يكون هذا الانفتاح عن وعي وتعقل، وليس فقط لا تلغي النظرية الإسلامية العالمية تعددية الأقسام والشعوب، بل تعتمدها، وتعترف بها، وتنطلق منها، وتضع على أساسها نظريتها الجديدة في العالمية، وتوظفها وتحقق هذه النظرية ضمن منهج علمي صحيح، يقوم على اساس من الانفتاح والانتقاء الواعي.

3 - الجانب القيمي

«ان» أكرمكم عند [] أتفاكم».

ماهي القيمة؟

نقصد بالقيمة المقاييس والأسس التي نستطيع أن نميز بها الناس، ونقدم منهج ونؤخر من نقدم ونؤخر، عندما يتطلب الأمر منا التقديم والتأخير فان كثيراً من المواقف والأعمال الاجتماعية، والسياسية، والحركية، وغيرها تضطرنا إلى الموازنة بين الناس في تقديم الناس بعضهم على بعض عندما نضطر إلى التقديم والتأخير، أو في الفصل والحسم، في الامور، عندما يتطلب الأمر منا الحسم والفصل، والمعايير والأسس التي تتم بها هذه الموازنة والفصل والحسم هو ما نقصده بالقيم. كما ان الإنسان لا بد ان يسلك بنفسه طريقاً للتكامل، ولا بد أن يسلك لمن يريد أن يربيه وينشؤه طريقاً للتكامل.

والنقاط والغايات التي يطلبها الإنسان في هذه المرحلة إلى الكمال والى [] تعالى هي (القيم)، وبناء على ذلك فإن التقييم، مسألة هامة في حياة الإنسان وتختلف المذاهب والمدارس في أنظمة التقييم فما هو رأي الإسلام في التقييم؟ هل هو الانتماء الإنساني؟ أم الانتماء العشائري؟ أم الانتماء القومي؟ أم العلم، أم المال؟ أم القوة؟ أم الفضيلة؟ وما هي الفضيلة التي تعتبر أساساً للتقييم؟

وهذه القيم هي الأساس في (الحب) و(البغض) و(الموقف) و(الموازنة) و(التقديم) و(التأخير) و(الفصل) و(التربية) وفي كثير من شؤون الإنسان وحياته.

نظام التقييم في الإسلام

للإسلام نظام خاص للتقييم. وهذا النظام يختلف اختلافاً جوهرياً عن سائر الأنظمة التقييمية في الحضارات الجاهلية ولو أننا عرفنا النظام العام للتقييم في الإسلام لا نتردد كثيراً في مفردات الحالات التي تطلب منا رأي الإسلام فيها ولهذا النظام وجه ايجابي وآخر سلبي ومن دون ان يفترن هذان الوجهان ونوظفهما معاً لا نستطيع أن نفهم النظام الذي يرسمه الإسلام لتقييم الأفراد والجماعات والحالات الإنسانية.

وسوف نستعرض في هذه الدراسة الوجه الايجابي لنظام التقييم في الإسلام أولاً، ثم نستعرض الوجه السلبي لهذا النظام ثانياً.

الوجه الايجابي لنظام التقييم

يجعل الإسلام (التقوى) و(الاستقامة) على حدود الله وصراطه المستقيم الأساس في التقييم، ويعتبر (التقوى) هي المعيار والميزان الذي يجب علينا ان نترك به الأفراد والفئات والجماعات، وهو الغاية التي يطلبها الإنسان في طريقه للكمال إلى الله تعالى.

يقول تعالى في آية سورة الحجرات، موضوع هذا البحث: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وهي صريحة وواضحة في ان الله تعالى جعل (التقوى) أساساً للتفاضل والموارثة والتقديم والتأخير بين عباده، والغاية التي يطلبها الإنسان في طريقه للكمال وان القيمة ما كان عند الله قيمة؛ وهذا النظام للتقييم (عند الله) «إن أكرمكم عند الله» ونظام التقييم عند الله قد يختلف عملاً بأيدي الناس من أنظمة ووسائل للتقييم.

التقوى أساس البنیان

وجعل الله تعالى (التقوى) الأساس الذي يجب علينا ان نقيم عليه كل بنيان لنا في الحياة، من البنیان السياسي، إلى الحركي، إلى الاقتصادي، إلى العائلي، إلى العلاقات الاجتماعية وكل بنيان للإنسان، يعتمد التقوى، فهو يقوم على أساس ثابت ومتمين، وكل بنيان لا يقوم على هذا الأساس، فهو على شفا جرف هار، لا يعلم الإنسان متى ينهار تحت قدمه، يقول تعالى:

«أفمن أسس بنيانه على تقوى من اله ورضوان خير أم من اسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم» والله لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم والله عليم حكيم» (التوبة 109 - 110).

القيم و ضد القيم

وبناء على هذه الحقيقة الهامة وهي ان الهدى من الله لا غير، فإن القيم ما كانت من عند الله وما لم تكن عند الله قيمة فليس بقيمة، وفي ضوء ذلك نستطيع أن نحدد القيم بما يحبه الله و ضد القيم بما لا يحبه

□ فما أحب □ قيمه، وما لم يحبه □ ضد القيمة.
ولننظر إلى طائفة من القيم على ضوء القيم في القرآن.
القيم عند □

- «إن □ يحب المحسنين» (البقرة/195 – المائدة /13).
- «إن □ يحب التوابين ويحب المتطهرين» (البقرة/222).
- «فإن □ يحب المتقين» (آل عمران/76).
- «و□ يحب الصّابرين» (آل عمران/146).
- «و□ يحب المتوكّلين» (آل عمران/159).
- «و□ يحب المقسطين» (الحجرات /9 – المائدة /42 – الممتحنة /8).
- «و□ يحب المطهّرين» (التوبة /108).
- «إن □ يحب الّذين يقاتلون في سبيله صفّاءً كأنّهم بنيان مرصوص» (الصف /4).

ضد القيم عند □

- «إن □ لا يحب المعتدين» (البقرة/190).
- «و□ لا يحب الفساد» (البقرة/205).
- «و□ لا يحب كلّ كفّار أثيم» «البقرة/276».
- «فإن □ لا يحب الكافرين» (آل عمران /32).
- «و□ لا يحب الظّالمين» (آل عمران /140، 57).
- «إن □ لا يحب من كان مختالاً فخوراً» (النساء/36).
- «إن □ لا يحب من كان خواناً أثيماً» (النساء/107).
- «لا يحب □ الجهر بالسوء من القول» (النساء/148).
- «و□ لا يحب المفسدين» (المائدة/46).
- «إنّه لا يحب المسرفين» (الأعراف/31، الأنعام/141).
- «إنّه لا يحب المستكبرين» (النحل/23).
- «لا تفرح إن □ لا يحب الفرحين» (القصاص/76).

التقوى وآثارها ونتائجها في القرآن

التقوى هي الاستقامة على صراط □ المستقيم، والالتزام بحدود □. وفيما يلي نشير إلى بعض خصائص ومقومات وآثار التقوى من خلال القرآن.

1 – تعتمد التقوى (التوحيد) و(الإيمان بالغيب) و(الإيمان برسالات □) (أساساً وقاعدة) يقول تعالى:
«الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتّقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون
والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون» (البقرة/1 – 4).

2 - وهو خير ما يحمله الإنسان من الزاد من الدُّنيا إلى الآخرة.

«وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» (البقرة/197).

3 - والتقوى من أفضل وأبرز مصاديق البر والإحسان في حياة الإنسان.

«ولكن البر من اتقى» (البقرة /189).

وهي قرين البر في القرآن.

«وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» (المائدة/2).

وهي قرين العدل.

«أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا» (المائدة/8).

وقرين الصدق «أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» (البقرة/177).

وقرين الإصلاح.

«فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (الأعراف/130).

4 - والتقوى لباس تستر الإنسان من الذنوب والسيئات كما يستر الثوب الجسم من الازى والضرر ولباس

تستر سوءات الإنسان كما يستر اللباس عورة الإنسان.

«يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات

لعلهم يتذكرون» (الاعراف 26).

5- والمتقون هم اولياء الله.

«ان اولياؤه إلا المتقون ولكن اكثرهم لا يعلمون» (الانفال 34).

6- والله مع المتقين، ولهم في حياتهم معية الله تعالى، وهي أعز ما يمكن ان يكسبه الإنسان في حياته.

«ان الله مع الذين أتقوا والذين هم محسنون» (النحل 128).

7- ولا يعرف المتقون في دنياهم خوفاً، ولا حزناً، ويرضون بكل قضائه وقدره، فلا يجد الخوف والحزن إلى

نفوسهم سبيلاً.

بقوله تعالى:

«فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (الاعراف 35).

8- والعاقبة للمتقين.

«فاصبر ان العاقبة للمتقين» (هود 49).

9- «وأزلفت الجنة للمتقين» (الشورى 90).

«ان للمتقين مفازاً حدائق واعناباً» (النبأ 31).

10- وبالتقوى يبسر الله تعالى أمور عباده وجعل الله تعالى التقوى سبيلاً ليسر أمور العباد عليهم.

«وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى» (الليل 5).

«ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره

قد جعل الله لكل شيء قدراً» (الطلاق 2 - 3).

- 11- وبالتقوى يفتح الله تعالى بركات السماء والارض على عباده.
- «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض» (الاعراف 96).
- 12- وبالتقوى يطرد الله الشيطان عن الإنسان ويذكره ويبصره، ويشعر بخطر الشيطان.
- «ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون» (الاعراف 201).
- 13- وبالتقوى يتقبل الله تعالى الاعمال من عباده «انما يتقبل الله من المتقين».
- 14- والتقوى من مصادر الوعي والبصيرة في نفس الإنسان «واتقوا الله ويعلمكم الله».
- 15- والتقوى فرقان بين الحق والباطل في النفس، ولا يلتبس أمر الحق والباطل على الإنسان إذا اخذ بالتقوى.

«يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً» (الانفال 29).

- 16- والتقوى تبصر الإنسان بآيات الله، وتذكره بالله تعالى:
- «ان في اختلاف الليل والنهار وما خلقنا في السماوات والارض لآيات لقوم يتقون» (يونس 6).
- 17- وبالتقوى يكفر الله تعالى سيئات الناس.
- «ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له اجرا» (الطلاق 5).
- 18- وبالتقوى ينجي الله تعالى المتقين من نار جهنم.
- «ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً» (مريم 72).
- 19- وبالتقوى والصبر يدفع الله عن المؤمن كيد الظالمين.
- «وان تصبروا وتنفقوا لا يضركم كيدهم شيئاً» (آل عمران 120).
- 20- وبالتقوى يعد الله تعالى عباده بالنصر في ساحات القتال.
- «بلى ان تصبروا وتنفقوا يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسويين».
- 21- والتقوى من «عزم الامور».

«وان تصبروا وتنفقوا فان ذلك من عزم الأمور» (آل عمران 186).

العلاقة بين الجوانب الثلاثة في آية الحجرات

والجوانب الثلاثة التي في آية الحجرات يرتبط بعضها ببعض فإن (الجانب التكويني) وهو اختلاف الشعوب والقبائل والأقوام وهو مفتاح الجانب الوظيفي يتيح الفرصة للناس للتعارف واللقاء وتبادل القيم والأصول والأفكار والكفاءات على أساس من الانفتاح والانتقاء.

(والجانب الوظيفي) مفتاح الجانب القيمي في هذه المسألة فإن التوظيف الصحيح لحالة التعدد في الشعوب والقبائل والأقوام في أمر التعارف واللقاء الحضاري يؤدي إلى تقويم سلوك الإنسان، وتقويم السلوك و ضبط السلوك على أساس من (التقوى).

إذن هذه الجوانب الثلاثة في آية الحجرات يرتبط بعضها ببعض في التحليل الدقيق لهذه المسألة.

«إنّ هذه امتكم أمّة واحدة وأنا ربكم فاعبدون».

هذه رؤية جديدة للعالمية يقررها القرآن الكريم على أساس جميع الشعوب والأقوام والقبائل كلها في أمة واحدة تلتقي عندها الأقوام والشعوب جميعاً.

والأمة الواحدة تنطلق من الاعتراف بتعدد الشعوب والقبائل والأقوام، لأرض الشعوب والأقوام، ولكن بتوظيف صحيح لحالة التعدد في الشرائح البشرية على منهج «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه».

والأمة الواحدة حالة حضارية قائمة على أساس (التوحيد) و(التقوى).

«وأنا ربكم فاعبدون».

الوجه السلبي لنظام التقييم

ولنظام التقييم في الإسلام وجه آخر سلبي، ولا يكتمل من دونه نظام التقييم كنظام شامل متكامل.

وفي هذا الوجه يهدم الإسلام أسس ومعايير التقييم التي تعتمدها الجاهلية في التقديم، والتأخير، والحسم، والفضل، والحب، والبغض، والتقريب، والأبعاد والولاء، والبراء، والدفاع، والهجوم. وهذه الأسس تقوم على أساس الانتماء القومي والطبقي، والعشائري، والأقليمي لا التوحيد والتقوى والحق، ويشجب الإسلام اعتبار هذه الأمور أسساً ومعايير للتقييم وفيما يلي نقل طائفة من النصوص الإسلامية في هذا الشأن.

1 – روي المفسرون في شأن نزول هذه الآية الكريمة عن ابن عباس أن في يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وآله بلال حتى علا ظهر الكعبة، فأذن، فقال، عناب بن اسيد بن أبي العيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم، قال الحارث بن هشام: ما وجد محمد صلى الله عليه وآله غير هذا الغراب الأسود مؤذناً، وقال سهيل بن عمرو: ان يرد الله شيئاً يغيره، وقال أبو سفيان إنى لا أقول أخاف ان يخبره به ربّ السماء.

فأتى جبرائيل النبي صلى الله عليه وآله وأخبره قالوا فدعاهم وسألهم عما قالوا فاقروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنسان والتكاثر بالأموال، والازداء بالفقراء، فإن المدار على التقوى(1).

2 – وخطب رسول الله صلى الله عليه وآله والناس في مكة فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية

وتعاطمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقى كريم على الله وفاجر شقي هين على الله».

3 – وخطب رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين بمنى أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس إلا ان أباكم واحد، إلا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي ولا أسود على أحمر، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى، إلا هل بلغت قالوا نعم قال: وليبلغ الشاهد الغائب.

4 – ومن حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله (ص):

إن لا ينظر إلى أحسابكم، ولا إلى أنسابكم، ولا إلى أجسامكم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له فقلب صالح تحنن إليه عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبكم إليه أتفاكم(3).

5 – وعن ابن جعفر الباقر عليه السلام قال لما كان يوم فتح مكة قام رسول الله صلى الله عليه وآله في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم من آدم، وآدم من طين، ألا وان خيركم عند الله وأكرمكم عليه اليوم أتفاكم وأطوعكم له، إلا وان العربية ليست باب لأحد، ولكنها لسان ناطق فمن قصر به عمله لم يبلغه رضوان حسنه إلا وان كل دم أو مظلمة أو اخنة كانت في الجاهلية فهي تظل تحت قدمي إلى يوم القيامة.

العصبية والحمية

وفي مقابل (العالمية) و(الانفتاح) التي يدعو إليها الإسلام تقع العصبية والحمية الجاهلية. وهي حالة الانغلاق القومي والعشائري والفئوي وتحيز الإنسان إلى قومه وعشيرته وفئته في حق أو باطل، وهي حالة معاكسة لحالة (الأمة الواحدة) التي يدعو إليها القرآن من ناحيتين، في الانفتاح أولاً وفي إتخاذ التقوى والحق مقياساً ثانياً، وهذه هي حالة (الحمية الجاهلية) المذمومة في النصوص الإسلامية. فليس من العصبية ان يحب الإنسان قومه، وليس من العصبية ان يعينهم أو يدفع عنهم، ولكن من العصبية أن يعين الإنسان قومه في ظلم ويحبهم ويدافع عنهم على باطل.

روى الزهري قال سئل علي بن الحسين عليه السلام عن العصبية فقال: العصبية التي يؤثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم(1).

وروت بنت وائل بن الأسقع انها سمعت أباها يقول قلت يا رسول الله(ص) ما العصبية؟ قال: أن تعين قومك على الظلم .

المصدر: دار الاسلام